المجلة المغاربية للدراسات التاريخية والاجتماعية – جامعة سيدي بلعباس
ISNN : 2170-0060 EISSN : 2602-523X
المجلد 07 -- العدد 02 -- ديسمبر 2016 ص 102 - 109

في ذكرى رحيل الدكتور أبو القاسم سعد الله
On the anniversary of the departure of Dr. Abu al-Qasim Saadullah

د .بشير فايد Dr. Faid Bachir bachir.faid@gmail.com	تاريخ حديث و معاصر	قسم التاريخ و الآثار جامعة سطيف2 - الجزائر

DOI :

ملخص

لقد كان الأستاذ الدكتور **أبو القاسم سعد الله**، من أولئك العلماء الذين استحقوا بالفعل لقب العالم، الذي شق طريقه بالإصرار و الإرادة، و بكثير من الصبر و التحدي، و روح الكفاح و الجد و الاجتهاد، لكي يصل إلى ما وصل إليه من نبوغ و تميز و كفاءة و اقتدار، رغم حياة العوز و الحرمان و القهر و البؤس، التي كان يعيشها السواد الأعظم من الجزائريين، بفعل سياسة استعمارية عنصرية مقيتة و بائسة، قامت على إذلال و احتقار أدمية الإنسان الجزائري، بأبشع الصور و أخس الوسائل، و منها نشر الجوع و الجهل و الأمية و الرذيلة بين صفوفه على نطاق شامل.

فضل الهجرة و ترك الديار، لما رأى أن الوطن المغتصب، أصبح يقف حاجزا أمام تحقيق طموحاته العلمية و المعرفية، فتنقل من بلد لآخر، حتى تحصل على شهادة الدكتوراه سنة 1965م من الجامعات الأمريكية، التي شهدت فجر ميلاد عالم و مؤرخ و مفكر و مثقف جزائري، متميز في عطائه و شخصيته و نظرته و مساره. كما كان مثالا للصبر و التحدي، و قد كانت حياته كلها تحدي و كفاح و مثابرة و تضحيات.

الكلمات المفتاحية : سعد الله؛ التاريخ؛ المؤرخ؛ الذكرى؛ الجزائر.

Abstract

Professor Dr. Abu al-Qasim Saadallah was one of those scholars who truly deserved the title of the world, who made his way with determination and will, and with a lot of patience and challenge, and the spirit of struggle, seriousness and diligence, in order to reach the attainment of excellence and excellence. Efficiency and competence, despite the life of destitution, deprivation, oppression and misery, which was experienced by the vast majority of Algerians, as a result of a hateful and miserable colonial policy of colonialism, based on humiliation and contempt for the mankind of the Algerian people, with the most horrific images and the most despicable means, including spreading hunger And ignorance, illiteracy and vice among its ranks on a comprehensive scale.

The virtue of immigration and leaving the home, when he saw that the usurped country had become a barrier to achieving its scientific and cognitive ambitions, so he moved from one country to another, until she obtained a doctorate in 1965 AD from American universities, which witnessed the dawn of the birth of an Algerian scientist, historian, thinker and intellectual. , Distinguished in his

generosity, personality, outlook and path. It was also an example of patience and challenge, and his entire life was a challenge, a struggle, perseverance and sacrifices.

Keywords: Saad Allah; History; the historian; Anniversary: Algeria.

مقدمة

لا شك أن منزلة العلماء، عظيمة في صناعة حاضر و مستقبل أممهم، و بطبيعة الحال لا يتحقق ذلك، إلا إذا اتصفوا بصفات العلماء الحقيقيين، التي تمنحهم الأهلية في القيادة و التوجيه والعطاء و الإبداع، و التأثير الإيجابي في مجريات الحياة، فليس كل من ينتسب إلى العلم عالما، حتى و إن نال أعلى الدرجات العلمية من أعرق الجامعات العالمية. بمعنى أن العلم قد يدل على صاحبه، الذي قد لا يدل عليه على حد وصف الشيخ **البشير الإبراهيمي**، الذي شبه العالم بالعسكري الذي يعرفه الناس من خلال بذلته العسكرية التي دلت عليه، دون أن يعني ذلك أنه عسكري حقيقي، فقد يكون جبانا ترتعد فرائسه، لمجرد رؤيته لشيء يتحرك في ظروف عادية، فما بالك في ظروف الحرب؟

سقنا هذا التشبيه، لنبين أن إدراك مرتبة العالم الحقيقي، ليست بالطريق المعبد بالحرير، المزينة حواشيه بأندر الأزهار و الورود، لأنه في واقع الأمر شائك، لا يقوى على السير فيه إلى نهايته، إلا أولئك الذين أيقنوا منذ البداية، أنهم ولدوا، ليس ليعيشوا كما تعيش العامة، و إنما لكي يحرموا من العيش، ليعيش الغير في سعادة و رفاهية و هناء.

1- المؤرخ سعد الله عالم من علماء الجزائر

لقد كان الأستاذ الدكتور **أبو القاسم سعد الله**، من أولئك العلماء الذين استحقوا بالفعل لقب العالم، الذي شق طريقه بالإصرار و الإرادة، و بكثير من الصبر و التحدي، و روح الكفاح و الجد و الاجتهاد، لكي يصل إلى ما وصل إليه من نبوغ و تميز و كفاءة و اقتدار، رغم حياة العوز و الحرمان و القهر و البؤس، التي كان يعيشها السواد الأعظم من الجزائريين، بفعل سياسة استعمارية عنصرية مقيتة و بائسة، قامت على إذلال و احتقار أدمية الإنسان الجزائري، بأبشع الصور و أخس الوسائل، و منها نشر الجوع و الجهل و الأمية و الرذيلة بين صفوفه على نطاق شامل.

فضل الهجرة و ترك الديار، لما رأى أن الوطن المغتصب، أصبح يقف حاجزا أمام تحقيق طموحاته العلمية و المعرفية، فتنقل من بلد لآخر، حتى تحصل على شهادة

الدكتوراه سنة 1965م من الجامعات الأمريكية، التي شهدت فجر ميلاد عالم و مؤرخ و مفكر و مثقف جزائري، متميز في عطائه و شخصيته و نظرته و مساره.

ثقافته كانت موسوعية، بفضل تحصيله العلمي الجيد، و انكبابه على مطالعة أمهات الكتب قديمها و حديثها، بالإضافة إلى كل ما استطاع أن يصل إليه من أبحاث و دوريات و مؤلفات و دواوين شعرية، الأمر الذي سمح له بالبراعة و التمكن في أكثر من تخصص و مجال:التاريخ، الأدب، الشعر، الصحافة، و تلك خاصية تميز بها العلماء في الماضي، الذين كانوا يرون أن علمهم لا يكتمل، إلا إذا برعوا في كل العلوم، و الأمثلة كثيرة في تاريخ الجزائر قريبه أو بعيده، لكنها و رغم أهميتها، نراها الآن نادرة أو شبه معدومة.

و في هذا الإطار، لازم كبار العلماء والمثقفين، و هو لا يزال شابا يافعا، أخذ عنهم العلم والثقافة و الفكر و التجارب و الأخلاق، من أمثال:**الشيخين البشير الإبراهيمي و العربي التبسي**...و غيرهما، ملازمة التلميذ النجيب، الذي يسارع الزمن، لأجل أن يستخلص منهم عصارة ما في جعبتهم، خاصة و أنهم لم يكونوا متفرغين للعلم و التعليم فحسب، لأن المستعمر جعلهم يحاربون على أكثر من جهة و صعيد.

2- أبو القاسم سعد الله بين الأدب و التاريخ

وعن سؤال وجه له، حول مزاوجته بين الأدب و التاريخ، بدل التفرغ لحقل واحد، ذكر بأنه سلك هذا الطريق لإيمانه بأن:((الأدب كنصوص و مواقف و قيم و لغة يحتاجه المؤرخ أشد الحاجة.و النصوص الأدبية التي أنشرها من وقت لآخر عن العهد العثماني تبين كيف يمكن فهم الحوادث التاريخية من خلالها.و على هذا فأنا ما زلت على هذه الازدواجية و أدعو إليها، و إلا فأي مؤرخ هذا الذي لا يعرف كيف يصوغ أفكاره و يقدم مادته إلى القراء؟))**(1)**.

أدرك تمام الإدراك، أن العالم الحقيقي، ليس هو ذلك الذي يهضم بضاعة غيره، دون نقد أو تمحيص، فقد أظهر و هو لا يزال طالبا، ميلا شديدا إلى النقد، أمر انتبه إليه الشيخ **البشير الإبراهيمي**، فأطلق عليه لقب الناقد الصغير، ليصبح في المستقبل ناقدا كبيرا، باعتراف كل المهتمين بإنتاجه العلمي و الفكري، و بمواقفه من مختلف القضايا المعاصرة محليا و خارجيا.

كان صاحب رسالة واضحة، تتمثل في الدفاع عن الثقافة الجزائرية و اللغة العربية، من خلاله مشاريعه البحثية الضخمة، و على رأسها تاريخ الجزائر الثقافي، الذي يعد بحق أعظم هدية قدمها للجزائر المستقلة، التي افتقدت إلى أعمال بهذا الحجم، تنقب في ماضيها كما ينقب الباحثون عن المعادن الثمينة، في جبال من التراب والحجارة، بفعل شح المادة العلمية و توزعها بين أماكن معلومة و أخرى مجهولة.

ومع ذلك، نجح التحدي الكبير، الذي رفعه الدكتور **سعد الله**، و النتيجة عمل موسوعي، لا يمكن وصفه إلا بالأعمال الخالدة، التي قد تثير همم أهل العلم و الفكر في المستقبل، فيطلقون مشاريع مشابهة، تثري رصيدنا العلمي و الفكري، الشحيح جدا في هذا المضمار، و قد أفصح عن بعض الصعوبات المنهجية، التي صادفته في بداية جمعه للمادة العلمية، في محاضرة نشرها في كتابه " **خارج السرب مقالات و تأملات** "((2)جاءت تحت عنوان" **حيرة مؤرخ** "و تتمثل في نسبة التاريخ الثقافي الذي يعود إلى ما قبل القرن السادس عشر الذي يؤرخ لميلاد " **الجزائر التاريخية** " كهوية سياسية، على حد قوله.

3- أبو القاسم سعد و أهمية التاريخ في قوة و تماسك الأمة

كان في غاية الاستياء، من تعامل الأمة الجزائرية خاصة، و العربية الإسلامية عامة، مع أبطالها و عظمائها و علمائها، و قادة الفكر و الرأي فيها، عبر التاريخ، لا يجدون منها إلا الجحود و الاستخفاف بما قدموه و أنجزوه كل في مجاله، بفعل الاستعمار الذي نجح بفضل دهائه و مكره في تحويل بلدان العرب و المسلمين إلى أقطار صغيرة، لا ترى أبعد من حدودها، تختصر تاريخها في بعض الأحداث و الشخصيات، تحتفل بهم احتفالا فلكلوريا ليس إلا، بينما يجتهد هو- الاستعمار- في تمجيد و تخليد قادته و عظمائه، حتى و لو كانوا أقل عظمة و تأثيرا، لأنه يدرك تمام الإدراك، أهمية التاريخ في وحدة الأمم و قوتها و ترابطها و انسجامها، و هو ما لم ندركه نحن بعد حسب الدكتور **أبو القاسم سعد الله**.

4- العلاقة بين العالم و السلطة عند سعد الله

لا ريب أن العلاقة بين العالم أو المثقف و السلطة، كانت من أكثر المواضيع حساسية و تعقيدا و تشابكا، طيلة التاريخ الإسلامي، و لذلك حرص الدكتور **أبو القاسم سعد الله** حرصا شديدا، على أن يظل بعيدا عن تقلد المناصب والمسؤوليات، ليقينه التام أن الابتعاد عنها و الإخلاص للعلم وحده و الانقطاع له، هو الضامن الوحيد لاستقلال و حرية العلماء و المثقفين(3)، و هو ما يبرر إحجامه عن قبول عروض تولي مناصب سامية في الدولة الجزائرية، رغم الإلحاح الشديد عليه، كوزير للتعليم العالي، و الثقافة، على سبيل المثال، رادا الملتمسين منه ذلك بلطف، متحججا بكونه لم يخلق إلا البحث العلمي.

متواضع فيما ينبغي التواضع فيه، لا يبخل بالنصيحة لطلبة العلم، حيث بلغ به الأمر بأن يعرض عليهم بعض أعماله لإبداء الرأي فيها، لا يحب الأضواء و الظهور الإعلامي، فقد كان من الصعب جدا بل و من المستحيل في بعض الأحيان، انتزاع موافقة منه على تسجيل حديث أو مشاركة في حصة تلفزيونية، و قد لمست ذلك شخصيا، لما شاهدت حصة سجلتها معه المحطة الجهوية للتلفزيون الجزائري بقسنطينة سنة 2010م، حيث ظل من حين لآخر يذكر الصحفي بأنه قد تمكن من اصطياده و لا يدري كيف تسنى له ذلك؟

5- لقاء مع سعد الله في ملتقى علمي بالأردن

كان مثالا للصبر و التحدي، و قد كانت حياته كلها تحدي و كفاح و مثابرة و تضحيات، احتفظ بقدرة عجيبة على تحمل مشاق السفر، رغم تعب السنين، و تأثير المرض عليه، أمر استوقفني في شهر جويلية من عام 2012م، بمناسبة انعقاد مؤتمر"التواصل الحضاري العماني" بجامعة آل البيت بالمملكة الأردنية الهاشمية، حيث فوجئت شخصيا بحضوره، و قد تجاوز الثمانين من عمره، و قد تساءلت في نفسي و في خجل، كيف لي أن أتضايق من السفر، و أنا في نهاية الثلاثينيات من عمري، مقارنة مع هذا الرجل الصبور الجلد الذي يفصلني عن سنه أكثر من أربعين عاما؟.

هادئ للغاية، لا يكلمك إلا إذا طلبت منه ذلك، يستمع إليك و لا يقاطعك حتى تنهي حديثك، يجيبك بصوت خافت تكاد لا تسمعه، يجلس في أقرب مكان أثناء جلسات المؤتمر السالف الذكر، مظهره لا يوحي للذي يراه أن الواقف أمامه من كبار

العلماء المجددين و المستقلين و المتميزين في العالم العربي و الإسلامي، ينطبق عليه في رأيي، ما قيل في حق الشيخ **البشير الإبراهيمي**، من أنك لما تراه تشفق عليه لتواضع مظهره، و لما تتحدث إليه تشفق على نفسك، لأنك تكتشف هوة سحيقة بين المظهر و المخبر من ناحية، وبين مستواه و مستواك من ناحية أخرى.

لم ينكر، أنه يبدو أحيانا قاسيا في حديثه، مبررا ذلك بتجهم الواقع و نبل الرسالة اللذان قد يشفعان له:((فنحن أمام وضع مريض في الوطن العربي عامة، وصل إلى آخر مراحل الدواء، و هو الكي، بل البتر.و لقد انتهى، في نظري، عهد الدعوة إلى الوعي، و عهد الدعوة إلى الإصلاح و التغيير، و عهد الدعوة إلى الوعي فقط إلى التحرر من نير الأجنبي، و جاء عهد جديد، في نظري أيضا، و هو عهد الثورة على النفس، و غسل خطايا الماضي و الحاضر المترسبة في ذاتنا.إن الجيل العربي الذي يفتح عينيه اليوم على العهد الجديد لملوك الطوائف، و العهد الجديد من الحروب الصليبية، و العهد الجديد من الاستعمار-لا يمكنه أن يقنع بالوعود المسكنة، أو يخدع بالشعارات البراقة، أو يستسلم للجلادين الجدد، و لو كانوا من مواطنيه)) **(4)**.

البعض يعيب عليه، عدم انخراطه في المشهد العام- مع اعترافهم له بالتمكن و التميز- بحجة أن العالم أو المثقف لا تكتمل رسالته، إلا إذا كان فاعلا و مؤثرا في الحياة العامة، و ليس في مجال تخصصه فقط، و الإجابة بطبيعة الحال، أن الرجل اختار هذا السبيل و تمسك به إلى خر لحظات عمره، و هو في ذلك لا يصنع الاستثناء، فكم من أمثاله من فضلوا هذا الخيار و لم يحيدوا عنه أبدا؟.

كان سفيرا حقيقيا للجزائر، في كل البقاع و الأصقاع و الأوساط التي ينزل فيها، يحترمه الجميع، لما يتمتع به من شخصية قوية، و أخلاق عالية، و علم غزير، و نظر ثاقب، و استعداد كبير لإبداء الاهتمام اللازم بآراء الآخرين، فبخصوص هذه الخاصية الأخيرة، أذكر أنه ظل يستمع في أغلب الوقت لدكتور ليبي، كان يجلس معه في الحافلة، التي كانت تقل المشاركين في المؤتمر السالف الذكر، من محافظة المفرق(جامعة آل البيت) إلى العاصمة عمان(الجامعة الإسلامية العالمية)، الذي كان يحدثه عن الأوضاع الليبية في تلك الأثناء، و الرواية القائلة بأن الجزائر كانت تدعم النظام بالأسلحة و المرتزقة، لم يقاطعه **سعد الله** إلا ببعض التعقيبات البسيطة التي بالكاد تسمعها، فلما جلسنا بقاعة المحاضرات بالجامعة، بادرته بسؤال يحمل مسحة العتاب، مفاده أن ما

ذكره الدكتور الليبي غير منطقي و لا يمكن لعاقل أن يصدقه؟ فأجابني هذا رأيك و ذاك رأيه، دون أن يعطيني رأيه هو في المسألة، لأن مكالمة هاتفية قطعت حديثنا، طالبا مني تأجيل الخوض فيها إلى حين ريثما يرد على المكالمة، فلم أشأ أن أزعجه و أزعج الحضور بعد أن انطلقت جلسات المؤتمر، فنسيت الموضوع و لم أتذكره إلا بعد أن عدت إلى الجزائر.

6- ابو القاسم سعد و كتابة تاريخ الثورة

وبخصوص رأيه، في كتابة تاريخ الثورة التحريرية، التي كانت ما تزال في بدايتها، منتصف الثمانينيات، فقد انتقد التسرع الذي لاحظه لدى القائمين على العملية قائلا:((إن كتابة التاريخ لا تخضع لعوامل الضغط أو الابتسار، و لا يمكن في نظري أن نقوم بحملة لكتابة التاريخ الوطني، مثل حملة الحرث و البذر أو النظافة))**(5)**.

كما شدد على أن تاريخ كل بلد يكتبه أبناؤه، في حين أن الحاصل في الجزائر عكس ذلك تماما، حيث يعتمد أبناءها على كتابات غيرهم لفهم تاريخهم، وكتحصيل لذلك:((لا نستغرب من الانحرافات الفكرية التي تقع أمامنا، و التي لا نأمل عقباها في المستقبل، و أقدم هذا المثال لتوضيح الفكرة، إذا كان لكل شعب لباس وطني و لغة وطنية و أكل وطني، فإن لكل شعب تاريخا وطنيا لا يمكن أن يشترك فيه أكثر من شعب))**(6)**.

عاش بسيطا زاهدا في كل شيء، إلا في طلب العلم و نشره، فظل وفيا لذلك إلى أيام حياته الأخيرة، بل و متحسرا على ما فاته من أوقات، لإكماله مشاريعه الكثيرة و المتشعبة، و التي قد تحتاج إلى أعمار أخرى لإنجازها كما كان يأمل، و تلك بطبيعة الحال، خصلة من خصال العظماء، الذين يعلمون أن أعمارهم قصيرة جدا، بالمقارنة مع حجم المهام و الغايات و الرسالات، التي نذروا أنفسهم لها، لكنها حياة لا تتوقف بتحلل العنصر الترابي فيهم(أجسامهم)بل تستمر ما دامت هنالك حياة، لأن المادة تفنى والفكرة تبقى.

و لأننا أمة لا تميل إلى التسجيل و التدوين، و هو ما لاشك أن الدكتور **سعد الله** قد وقف عليه في رحلته الشاقة، لجمع التراث الثقافي الجزائري، فإننا نرجو من زملائه الباحثين و طلبته و أصدقائه داخل الوطن و خارجه، أن يخصصوا جانبا من أوقاتهم و

جهودهم، لكتابة تجاربهم الشخصية و الإنسانية التي جمعتهم بالرجل، مهما كانت بسيطة، من أجل أن تستفيد منها أجيال الطلبة و الباحثين في الحاضر و المستقبل.

خاتمة

و ي الختام أستسمح من أطلق عليه لقب شيخ المؤرخين الجزائريين، لعدم ميلي كثيرا إلى الألقاب التي تضاف إلى أسماء الناس المدونة في سجلات الحالة المدنية من جهة، و لأنه لا مشيخة في علم التاريخ من جهة ثانية، إنه بكل بساطة: عالم مستقل، ومفكر مستنير، و مؤرخ متمكن، و أديب مبدع ، و كاتب متمرس، كما اعتذر أيضا للذين سيقولون لي بعد قراءة هذه الوقفة: دعك من المدح و الإطراء لأنهما لا يفيدان.

الهوامش

1 - أبو القاسم سعد الله:**قضايا شائكة-أحاديث في شؤون الفكر و الأدب و التاريخ**، د ط، دار الغرب الإسلامي، بيروت:د ت، ص 14.

2 -أبو القاسم سعد الله:**خارج السرب مقالات و تأملات**، طبعة خاصة، عالم المعرفة، الجزائر، 2011م.

3 - أبو القاسم سعد الله، المصدر نفسه، ص ص47-48.

4 -أبو القاسم سعد الله:**قضايا شائكة-أحاديث في شؤون الفكر و الأدب و التاريخ**، مصدر سابق، ص ص6-7.

5 - للمزيد أنظر المصدر نفسه، ص10 و ما بعدها.

6 - للمزيد حول هذه النقطة أنظر أبو القاسم سعد الله:**قضايا شائكة-أحاديث في شؤون الفكر و الأدب و التاريخ**، مصدر سابق، ص38 و ما بعدها.